الإسلام دين الحياة
الكتاب الثانى

د. أحمد عبد الرحمن

الإســـلام والقتـــال

دار الشرق الأوسط للنشر

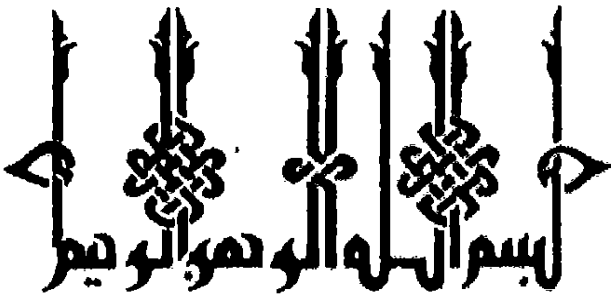
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

● ● إلى كل مسلم ..

غيور على الإسلام ..

تَواق إلى البذْل فى سبيله ..

حريص على التمكين له فى كل جوانب حياتنا ..

أهدى هذا الكتاب .

مقـــــدمة

بقلـم الناشـــر

يصدر هذا الكتاب ليعالج موضوعاً من أخطر الموضوعات التى تشغل البشرية من جانب ، والتى أخذت حيزاً كبيراً وملحوظاً فى أحكام الإسلام وفى نصوص القرآن وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . كما يصدر هذا الكتاب كذلك فى ظل أزمة متفجرة هى أزمة الخليج التى بدأت بضمّ العراق للكويت ، مع تشابك هذه الأزمة بالأزمات المزمنة فى المنطقة ، وبأوضاع المنطقة ككل .

للقتال أحكامه فى الإسلام بالطبع ، وهى فى أغلبها واضحة وقاطعة وحاسمة ، ولكن تأتى المشكلة أحياناً حين نحاول أن نطبّق بعض هذه الأحكام على الأوضاع الراهنة فى الوطن العربى والعالم الإسلامى ، ومنشأ المشكلة هو من اختلاف الكثير من الظروف والأوضاع الخاصة بالعرب والمسلمين عما كان من قبل ، وباعتبارهم جزءاً من المجتمع الدولى بنظامه ومنظماته الدولية والإقليمية ، وهو ما يسميه المؤلف باختلاف القسمة السياسية القديمة عما هو قائم الآن ، حيث كانت أحكام القتال فى الإسلام تقوم على أساس تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار العهد ثم دار الحرب ، وهذا ما انتهى الآن .. ولذلك ، ومع إقرارنا وإشادتنا بهذا الكتاب وبالجهد الشاق الذى بذله المؤلف فيه ، وبعمق البحث والدراسة

التى أدت إليه .. مع ذلك كله ، فإن المؤلف حين تعرّض لحكم الإسلام فى الاستعانة بالأجنبى فى الصراع فوق الأرض العربية والإسلامية ، فإنه انتهى إلى اجتهادات ونتائج معينة قد نختلف معه فيها ، وذلك لما نعرفه من حكم الإسلام بعدم موالاة الدول الأخرى من اليهود والنصارى ، وعدم الاستعانة بهم ويحيوشهم فى الحرب ، وخاصة إذا كانت هذه الدول الأخرى هى من الأعداء المحاربين للعروبة والإسلام ، وخاصة كذلك إذا كانت الاستعانة بهم هى ضد مسلم حتى لو كان هذا المسلم عاصياً فاسقاً .. ونضيف إلى ذلك بالنسبة لمسألة جواز الاستعانة باليهود وأهل الكتاب والمشركين ، والقياس على مافعله الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك للوصول إلى جواز ذلك فى هذه الأيام ، فإن القياس هنا هو مع الفارق ، ذلك أنه حين استعان الرسول عليه الصلاة والسلام بالمشركين ، فإنهم كانوا كأفراد وليسوا كدول أو جيوش استعمارية صليبية ، وفى تحالف الرسول مع اليهود وأهل الكتاب بالمدينة المنوَّرة ثم تحالف المسلمين مع أهل الكتاب ، فقد كان ذلك كله ضد المشركين والمجوس ، ولم يكن ضد عرب مسلمين .

على أننا إنصافاً للمؤلف وتقديراً له ولتجرده فى الرأى والاجتهاد ، نذكر أنه قرن اجتهاده بتقرير نقطتين هامتين :

١ ـ أن علماء المسلمين الآن قد اختلفوا فى هذا الموضوع .

٢ ـ أنه يرى أن هذا الموضوع لا يفتى فيه فرد بمفرده ، وإنما مؤتمر لعلماء الإسلام يكون بعيدا عن أىّ سطوة أو سلطة ..

إننا أخيراً نكرّر تقديرنا لهذا الكتاب الذى نقدّمه للقارىء لعله

يلقى الضوء على جوانب موضوع خطير ، تتعدد أبعاده وتتداخل أحكامه ، وخاصة مع اختلاف الأزمان والظروف وكما يقول المؤلف بتواضع العلماء : إن هذه الدراسة جّسدت الحاجة إلى فقه القتال المعاصر ، وهى بهذه المثابة مقدمة له ، لا كلمة الفصل فيه .

الناشـــــر

المقـــــدمـــة

● القتال ظاهرة خطيرة الأهمية فى حياة البشر ، وقد شغلت الفكر الإنسانى منذ القدم ، وإلى اليوم . وعبر القرون ، راود الفلاسفة حلم السلام الشامل والأمن الكامل . ولكن واقع البشر كان يندفع بقوة فى الاتجاه المضاد ، فكثرت الحروب ، وتطورت الأسلحة ، حتى أشرفت البشرية على عصر الفناء التام .

وقد كان نصيب الشعوب المسلمة من الحروب وافراً : من القتال ضد المستعمرين المعتدين ، ومن قتال حكامها بعضهم ضد بعضهم الآخر ، ومن الاقتتال الداخلى بين الحكومات ورعاياها ، ومن اعتداءات الأغلبيات غير المسلمة على الأقليات المسلمة .

● وتساءل الناس فى حيرة : هل من مخرج من ذلك البلاء ؟ كيف يقتل المسلمون المسلمين ؟! وهل هذه الحروب « جهاد ! » ؟ ومع من نقف . وضد من نقاتل ، وهؤلاء وأولئك مسلمون ؟ ثم أضافت الغزوة العراقية للكويت أسئلة أخرى من قبيل : هل يجوز أن يستعين المسلمون فى القتال بغير المسلمين ؟ وهل الغارة بدون إنذار مشروعة إسلامياً ؟ .

وفى مواجهة هذه التساؤلات ارتبك الشيوخ والكتاب ،

وأحس المتابعون للأحداث أن الجميع يفتقد « فقه القتال المعاصر » ، ومن ثم راحوا يحاولون إخضاع الواقع لأحكام واجتهادات تخص عالماً آخر ، مختلفاً سياسياً وعقيدياً عن عالمنا الراهن .

● إن القسمة السياسية القديمة كانت تشطر العالم إلى « دار إسلام » ، وإلى جانبها « دار العهد » ، ثم « دار الحرب » . وكانت القوى المتقاتلة إفرازاً لهذا التقسيم ، فدار الإسلام تقاتل دار الحرب ، وربما قاتلت طافة مسلمة تبغى على إمامها العادل . وفى العالم الحديث اختفت القسمة القديمة ، وجاءت قسمة جديدة ، ومعها قوى جديدة ، بمواصفات جديدة ، لكى تتولد عنها ضروب جديدة من القتال ، واحتاج الأمر ، بالنسبة للأمة المسلمة ، إلى « فقه قتال جديد » لم يوجد بعد !

هذه هى المعطيات التى نحاول فى هذه الدراسة أن نتلمس حقائقها .

●● وفى عملى هنا التزمتُ بالإصغاء التام لإملاء الكتاب والسُّنة ، ولم أسمح « لفقه الأقوياء » فى عصور الإسلام الزاهرة . ولا « للفقه الرسمى التبريرى » .. الذى يسود اليوم أن يمنعنى من الإصغاء إليهما . وقد وضعت قضايا عصرنا نصب عيني . وحاولت الإفلات من أى مرجع يدفعنى بعيدا عنها . واحتفلت بما أعتقدت أنه الحق ، والصواب ، وتجنبت اصطياد الأخطاء ، لإفساح المجال للحقائق ، وتوفير الوقت والجهد الذى يضيع فى التفنيد والنقد . وحرصتُ على التوثيق العلمى ، لكن دون توسع يرهق القارىء ،

ودون إقلال بسلب الحقائق سندها .

● ولم أقصد أبداً أن أفتى الناس فى أية قضية عرضت لها ، حتى إن لاح عبر السطور أننى أفعل . فالفتوى فى شئون القتال أخطر من أن يفتى فيها باحث بمفرده . كذلك لم أنصب من نفسى قاضيا فى أية مشكلة مطروحة ، فإنما أنا باحث أسعى إلى المعرفة ، وهو عمل يباين وظيفة القاضى الذى يحقق ، ويستدعى الشهود ، والخبراء ، ويتبين مواقف الأطراف ، ثم يحكم .

● وإننى لأرجو أن أكون قد أثرت قضية القتال والاقتتال فى عصرنا هذا ، وجذبتها إلى بؤرة الاهتمام فى الضمير المسلم . وأتمنى أن يوفق الله علماءنا فيعقدون لها ندوة علمية ، أو مؤتمراً بعيداً عن الموظفين الرسميين ؛ ليفتى المسلمين فى حلال القتال وحرامه . والله سبحانه وتعالى يعلم مقدار ما أصبت من نجاح ، وهو سبحانه من وراء القصد .

مصر الجديدة فى ٩ / ٩ / ١٩٩٠

د . أحمد عبد الرحمن

المبحث الأول

هل يمكن تجنب القتال ؟

﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ﴾

القتال عمل كريه للإنسان ، لأنه يُعرِّض حياته لخطر الموت ؛ وهو بحكم الفطرة يكره الموت ويحب الحياة .. وفى هذا يقول الخالق جل شأنه : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** ﴾ . [البقرة : ٢١٦] . والإنسان ينشد الأمن على حياته ، ويسعى إلى حمايتها ، وتعتبر قيم الأشياء إيجابا وسلباً بالنظر إليها ، مايفيدها خير ، وكل مايؤذيها شر .

والمسلمون بشر كسائر البشر ، يكرهون القتال ، ولا يسعون إليه إلا مضطرين .

● لقد ظل النبى ﷺ يدعو إلى الله سراً ثلاث سنوات ، منذ نزلت عليه ﴿ **إقرأ** » فى « غار حراء » ، إلى أن أمره الله تعالى بالتبليغ ، وقال جل ثناؤه : ﴿ **ياأيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس** ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ **فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن**

المشركين . إنا كفيناك المستهزئين ﴾ . فأخذ النبى ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله ، يدعو الأفراد والبطون والقبائل ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقول لهم : « قولوا لا إله إلا الله تسلموا » . ولم يعتد — عليه السلام — على أحد ، ولا أكره أحداً ، ولا مارس أى نوع من العنف : وقد نهاه الله تعالى ومن معه من المسلمين عن القتال ، فقال جلت حكمته : ﴿ **كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ﴾** . وعندئذ : « انقهر المسلمون للأمر ، وكفوا أيديهم ، ولم يسجل التاريخ حادثة فيها دافع مسلم فى مكة عن نفسه بالسيف ، مع كثرة الدواعى الطبيعية إلى ذلك وقوتها »(١) . وحين قال العباس ابن عبادة الأنصارى ، بعيد « بيعة العقبة » ، مخاطباً النبى ﷺ : « والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ! » أجابه عليه السلام بقوله : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم »(٢) .

ولقد كان التزام المسلمين بالكف عن القتال عسيراً ، لأن اعتداءات المشركين واستفزازاتهم كانت لا تطاق ، لكنهم امتثلوا لأوامر الله ورسوله ، فلم يقاتلوا أحدا ، وإن لم يخل الأمر من بعض المناوشات وهذا رسول الله ﷺ نفسه يتعرض للاعتداء الجسيم الغاشم على يد « عقبة بن أبى معيط » ، أحد جبابرة المشركين فى مكة ، إذ ألقى على النبى سلاجزور ، (كرش جمل بما فيه) ، فى محاولة لقتله فى أثناء صلاته ، فما كان منه عليه السلام إلا أن جعل يقول : « اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك

---

(١) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٢٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ .

بقريش ! »[1] .

ولا أحسب أننى بحاجة إلى سرد مالحق ببلال بن رباح من العذاب ، على أيدى « أمية بن خلف » وقومه ، وما حاق « بعمار بن ياسر » من تعذيب . ولقد فزع نفر من عتاة مكة إلى عبدالله بن مسعود وأوسعوه ضرباً ، فى وجهه ، لا لشىء سوى أنه تجاسر وقرأ شيئا من سورة الرحمن عند المقام[2] . وليس فى هذه السورة الكريمة ذكر لآلهتهم ، أو آبائهم ؛ والأمثلة لهذا كثيرة جداً ، ومعظمها معروف مشهور ، لا يحتاج إلى بيان . وعلى الرغم من كل أذى كف المسلمون أيديهم ولم يقاتلوا المشركين المعتدين .

● فكيف يُفسَر موقف المشركين العدوانى العنيف فى مواجهة الموقف الإسلامى المسالم الرافض للقتال ؟

يجيب الإمام المودودى رحمه الله بقوله : إن مجرد قول : « لا إله إلا الله » يكفى لإثارة المشركين ، فى القديم والحديث : « فيعلنون الحرب عليك بمجرد سماع هذه الكلمة ، وسواء عليك أردت القتال أم لم ترد ، فإنهم يحاربونك لا محالة ، ويقفون لك بالمرصاد .. وتجد الناس حولك كأنهم تحولوا عقارب وثعابين تريد أن تلدغك أو انقلبوا وحوشا ضارية تبتغى أن تنشب مخالبها فى بدنك وتفترسك افتراساً[3] . ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوى : « إن المجتمع الجاهلى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : جـ ١٢ ص ١٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ص ٣١٤ ــ ٣١٥ .

(٣) المودودى : الحكومة الإسلامية ، ص ٤٥ .

ما أخطأ فهم هذه الدعوة ، ومراميها ، وما غُمَّ على أهله أمرها ، وأدركوا — عندما قرع أسماعهم صوت النبى ﷺ ، أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدد إلى كبد الجاهلية ، ونعي لها ؛ فقامت قيامة الجاهلية ، ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير ، وقاتلت فى سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت ، وأجلبت على الداعى بخيلها ورجلها ، وجاءت بجدها وحديدها (وانطلق الملأ منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد) . ووجد كل ركن من أركان هذه الحياة ، ومن أثافى الجاهلية (يقصد أسسها) نفسه مهددا ، وحياته منذرة . وهنا وقع ماتحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب »[1] .

● فليس صحيحاً أن المشركين لم يعادوا النبى ﷺ إلا بعد أن : « ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته »[2] اللهم إلا إذا فهمنا أن كلمة : « لا إله إلا الله » ذاتها عيب لآلهتهم . والحق أنها كذلك ؛ فهى تنفى الوثنية ، وتقرر أن أصنامهم إن هى إلا مجرد أحجار أو أشجار ، وماهى بآلهة ، وهى لا تضر ولا تنفع ، ولا تقرب العباد من الله زلفى ، بل تكفرهم به ، وتباعد بينهم وبينه . وهذا كله كان يعد عيبا فى آلهتهم ، وتسفيهاً لآبائهم ، الذين عبدوا تلك الأصنام ، وقدسوها أحقابا متطاولة .

لقد كان المشركون عرباً ، يفهمون العربية ، وقد فهموا : « لا إله إلا الله » حق الفهم ، وأدركوا أنها النفي المطلق لوثنيتهم .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام ، حـ ١ ص ٢٦٤ .

ولذلك ، حين طلب النبى ﷺ من زعمائهم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » . « نفروا ، وتفرقوا ، وقالوا : سلنا غير هذه ! »[1] . ولما استجاب البعض للنبى : « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم »[2] .

● وأحسب أن هذه الحقائق ، وهذه التفسيرات ، تفيدنا اليوم ، ويمكن أن تعيننا على فهم المواقف الراهنة ، فنحن نعيش تناقضاً اعتقادياً مشابهاً لذلك التناقض الذى وجد فى يوم من الأيام . والطرفان يدركان جيدا أن أحدهما ينفى الآخر ، فثمة من يزعم أن الإنسان ليس بحاجة إلى هداية السماء فى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ويحصر الإسلام فى نطاق قانون الأحوال الشخصية . وهذا هو ما أسمّيه هنا مذهب « الاجتزاء » من الإسلام وفى مقابله طرف آخر يؤمن بأن الإسلام يشمل كل نواحى الحياة ، وأن المسلم لايمكن أن يكون مسلماً بحق إلا بأخذ الإسلام فى كماله وشموله ، ودون « اجتزاء » أو « انتقاء » ، لأنه بحاجة ماسة إلى هداية السماء فى كل جوانب الحياة . وأصحاب مذهب « الاجتزاء » هم الذين يملكون السلطة فى معظم أرجاء العالم الإسلامى ، وأصحاب مذهب شمول الإسلام هم الرعية المسلمة .

وخبرة عصر الراشدين تعلمنا أن مجرد الحديث عن شمول الإسلام وكماله ، لابد أن يثير « الاجتزائيين » ، مهما تلطف أصحاب مذهب الشمول فى الدعوة ، ومهما تذرعوا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومن جهة أخرى يستحيل أن يلتقى أصحاب مذهب شمول

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ص ٣٢٤ ، ص ٣٢٩ .

الإسلام مع « الاجتزائيين » إلا إذا تخلوا عن مذهبهم . وقد نشب القتال بين « الاجتزائيين » فى عهد أبى بكر الصديق ، وبين الأمة المسلمة ، بسبب محاولتهم استبعاد الزكاة ، مع تمسكهم (بلا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وأداء الصلوات ، وحج البيت ، وصوم رمضان(١) .

● فليس النزاع ، والجدال ، والاعتقال ، والقتال أحياناً ، براجع إلى أسلوب الدعوة إلى مذهب شمول الإسلام ، بل إلى تلك الحقيقة الأكيدة القائلة إنهم يجسدون النفى التام « للاجتزاء » .

وتعلمنا خبرة عصر النبوة أيضاً متى نكف أيدينا ، ومتى نجاهد وكيف نجاهد ، وقد قدم المفسرون أسبابا عديدة لكف المسلمين عن القتال فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الدعوة ، لكن السبب الأساسى ، كما سنرى خلال البحث ، هو قلة عدد المؤمنين بالمقارنة بأعداد المشركين : « وقد يأتى القتل عليهم لو تعرضوا لقتال المشركين فى صورة جماعية ذات قيادة حربية ظاهرة . فشاء الله أن يكثروا ، وأن يتميزوا فى قاعدة آمنة (بعد الهجرة ، فى المدينة المنورة) ثم أذن لهم بعد هذا فى القتال »(٢) فلم يكن المجتمع المسلم الصغير قد استعد للقتال ، وكان الدخول فى أية معركة كفيلاً بتحطيمه واستئصاله ، والنبى القائد ﷺ هو القائل : « شر الرِّعاء الحُطَمَة » ، فما كان عليه السلام ليقود رعيته إلى التحطم أبداً . وكانت هذه هى سياسته الحكيمة على الدوام ؛ وقد طبقها يوم الحديبية ، وإن شق ذلك على أصحابه رضى الله عنهم ، ليقينه

---

(١) مذهب الاجتزاء يضم فئات عديدة علمانية وغير علمانية .

(٢) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١٨٥ ــ ١٨٦ .

عليه السلام أن حوالى ألف وأربعمائة رجل لم يكونوا ليفتحوا مكة ، وخاصة إذا خرجوا بنية العمرة ، لا القتال ، وبسلاح المسافر ، لا المقاتل المهاجم ، أما حين اكتمل الاستعداد ، عدة وعدداً ، ونكثت قريش عهدها ، لم يتردد صلوات الله عليه فى اتخاذ قراره بفتح مكة ، وقد بلغ جيشه حوالى عشرة آلاف مقاتل . وحين حاولت قريش أن تجرب حظها مع الجيش المسلم الفاتح ، ودفعت بأوباشها إلى مصادمته ، أعمل أبطال الإسلام سيوفهم فى رقابهم ، ولم ينقذهم إلا أبو سفيان الذى هرع إلى النبى ﷺ متوسلاً صارخاً يقول : يارسول الله ، أُبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم[1] ! .

● ونحن يجب أن نتعلم هذا الدرس العظيم ، وهذه القيادة الصحيحة ، فإن قوى خارجية وداخلية معادية للإسلام تحاول جاهدة ، بالاعتداء والاستفزاز أن تجهض كل قوة إسلامية ، وتدفعها إلى النزال ، قبل أن تستعد ، وتكبر ، وتتهيأ للمواجهة . وقد نجحت فى حالات كثيرة ، واستدرجت بعض قيادات المسلمين ، وكانت — دون أن تدرى — من شر الرعاء الذين يقودون رعاياهم إلى الحُطَمَة !

الإذن بالقتال ، ثم فرضه :

● ثم جاءت الهجرة المباركة ، بعد تطورات وأحداث ، وبدأت مرحلة جهادية جديدة ، أُذن للمسلمين فيها بالقتال ، مجرد إذن أول الأمر ، يقول ابن اسحاق : « كان رسول الله ﷺ — قبل

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، جـ ١٢ ص ١٢٧ .

بيعة العقبة ـــ لم يُؤذَن له فى الحرب ، و لم تُحلَّل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل . وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم . فلما عتت قريش .. إذن الله عز وجل لرسوله ﷺ فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم . فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له بالحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم .. قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله** ﴾(١) .

● وبعد الإذن بالقتال ، فرض القتال فرضاً .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : « ولما مضت لرسول الله ﷺ مدة من هجرته ، أنعم الله تعالى فيها على جماعة باتباعه ، حدث لهم بها ـــ مع عون الله ـــ قوة بالعدد لم تكن قبلها ، ففرض الله تعالى عليهم الجهاد ، بعد إذ كان إباحة لا فرضا ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** ﴾(٢) .

وبعد الهجرة مكث المسلمون فى المدينة سنة كاملة دون أن يشتبكوا فى أية معركة ضد المشركين الذين طردوهم من ديارهم

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ص ٤٦٧ ، والآيتان رقم ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج .

(٢) الشافعى ، الأم ، جـ ٤ ص ٨٥ ، والآية رقم ٢١٦ من سورة البقرة .

وسلبوهم أموالهم . وأول غزوة غزاها رسول الله ﷺ كانت غزوة « ودان » بعد انقضاء سنة من الهجرة(١) .

وعلى الرغم من أن المسلمين كانوا على يقين من أن بيعتهم للنبى عليه السلام كانت تعنى : « حرب الأحمر والأسود من الناس » وتعنى : « نَهْكة الأموال وقتل الأشراف »(٢) ، فإن بعضهم خاف من قتال المشركين ، وتمنى على الله أن يؤخر ذلك ؛ وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى** ﴾ [النساء الآية رقم ٧٧] .

● فما العبرة التى يجب أن نستخلصها من هذه الحقائق ؟

إننا يجب أن نأخذ مدى قوتنا فى الاعتبار ، فنكف أيدينا أحيانا ، حيث نكون فى مرحلة الاستعداد ، ونواجه العدو فى مرحلة أخرى ، نكون فيها قادرين على المواجهة . وهذا هو الدرس السابق نفسه يتأكد مع تقدم الدراسة .

● وحول هذا التنوع فى المواقف بحسب القوة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن آيات مثل : ﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ و ﴿ **لست عليهم بمسيطر** ﴾ و ﴿ **فاعف عنهم واصفح** ﴾

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٥٩٠ ــ ٥٩١ .

(٢) تاريخ الطبرى ، حـ ٢ ص ٣٦٣ ــ ٣٦٤ .

تطبق : « فى حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه ، فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه . وصارت آية الصغار على المعاهدين فى حق كل مؤمن قوى يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه .. فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف ، أو فى وقت هو فيه مستضعف ، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذى الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين . وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون فى الدين ، وبآية قتال الذين أتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون »(١) .

وكل زعيم مسلم ، فى أى بلد مسلم ، مطالب بأن يعرف حقيقة قدراته ، وأن يقود المسلمين إلى العمل الذى يمكن أن يقدروا عليه دون أن يتعرضوا للتحطم والاستئصال . فالعمل الإسلامى لا يجب أن يتوقف لحظة ، ولكن على شرط ألا يفضى بالمسلمين إلى الهلاك دون أن يحدثوا كيداً يذكر فى العدو .

● إن هذه هى السنة النبوية كما رأينا ، وهى بدهية قيادية . لكن البعض يغفلها ، أو ينتهكها ، بحسن نية غالباً ، وبذلك يحطم رعيته المسلمة من الشباب الصالح ، فإذا هم بين أسير وقتيل ومشرد ومطارد .

* * *

---

(١) ابن تيمية ، الصارم المسلول ، ص ٢٢١ (والصغار هو الامتثال للحكم الإسلامى) .

المبحث الثانى
القتال فى العصر الحديث

القسمة الجديدة للعالم :

● ظهر الإسلام فى مكة ، وانتشر فيها بالدعوة ، سراً وجهراً ، دون قتال من جانب المسلمين ، كما أسلفنا ، ثم انتقل إلى المدينة ، من خلال الأنصار ، رضى الله عنهم ، ثم هاجر المسلمون المكيون إلى إخوانهم فى المدينة ، ومن المدينة أخذت أشعة التوحيد تسطع فى أرجاء الجزيرة العربية ، ثم لم يلبث الإسلام أن ذاع فى بلاد الشام وفارس ومصر وشمال إفريقية ، ثم جاز البحر إلى الأندلس ، حتى بلغ وسط أوروبا .

وكانت الوثنية العربية ، واليهودية والمسيحية والمجوسية ، تنسحب أمامه وتتقهقر ، وسقطت الإمبراطورية الفارسية ، وانكمشت الإمبراطورية الرومانية البيزنطية أمام جيوش المسلمين الظافرة ، ثم سقطت آخر الأمر .

وقد ظلت علاقة الإسلام بأوربا فى حالة من المد والجزر : فى أثناء الحروب الصليبية ، وحروب الأندلس ، وفتوحات العثمانيين فى أوربا ، إلى أن سقطت بلدان العالم الإسلامى كلها تقريباً فى قبضة الاستعمار الأوربى الحديث ، فراح الإنجليز والفرنسيون والروس